النجزئـــة والوحدة

وحقيقة الامر ان ميل الطوائف للاندثار في خلال المعركة القومية ، يكشـف بشكل سلبي هذا البعد غير اللبناني في نموها ٠

فاذا كانت المارونية قد تحولت الى طائفة هي الركن الركين للبنان ، فعملية التحول قد حصلت في خلال الارتباط العضوي بالغرب وتجزئة المنطقة العربية٠

واذا كانت السنية قد تحولت الى طائفة مع قيام الانتداب ، لتعطي لبنان وجهه الآخر ، فعملية التحول حصلت في خلال بتر الجسم الوطني اللبناني عن حلقات اتصاله العربي ٠ لقد عمل « الاقتصاد » من خلال الدور التجاري لبعض تجار المدن السنية على غرس الوعي الطائفي ـ اللبناني ، وكانت « السياسة » تلعب بالمقابل دور المحافظة على الوعي القومي ـ العربي ٠

وبفعل هذين التيارين المتعارضين في منشأ الطوائف وارتباط ذلك بفقـدان وحدة اقتصادية حقيقية لـ « لبنان » ، كانت السلطة سلطة شكلية معرضـة للانسحاب من التداول عند اي تقاطع سياسي بين لبنان والمنطقة ٠

وبلغة اخرى : لئن ولدت الطوائف كتعبير عن تحطم الانتاج المحلي وقيـام التبعية ، وانهيار السلطنة العثمانية والدولة العربية لصالح الاستعمار الاوروبي، فان التفاوت في عمل هذا الاستعمار نفسه ، والاصطناعية التي وسمت الكيـان الطائفي الذي خلقه ، جعلا الكيان اياه يحفر قبره بيده ، والطوائف اياها تحفـر قبرهـا بيدهـا ٠

ثمة منطق يقول ان لبنان ، في ظل مشاريع التقسيم السائدة قابل للمزيد مـن التجزئة وهش امـام مثل هذا المشروع ، لكنـه في الآن نفسه متماسك وصلب في وجه مشروع وحدوي عربي ٠

ومثل هذا القول يبلغ في تأثره بتوازن القوى في لحظة معينة ، درجة الاخذ بالتفسير الاستعماري للتاريخ ، والذي يفترض ان الفعل الامبريالي هو الفعـل الاوحد ، وان منتجات العملية الامبريالية المعقدة (كالطوائف) غير عرضـة للزوال ٠٠ وبالتالي فهي توجب الانطلاق منها والبناء عليها في العمل السياسي٠

واستطرادا : النظام الرأسمالي ـ الطائفي ضربته الثورة القومية ممثلـة بالمقاومة الفلسطينية من على يساره ، وضربته الرياح الاسرائيلية الساداتية من على يمينه ٠ فأية قوة سياسية هي القادرة على اعادة اللحمة اليه خصوصـا في ظل تدهور وضع « المعتدلين » العرب ، واستبعاد التوصل الى اي لون مـن الوان التوازن بعد معاهدة الصلح المنفـرد ؟ ربمـا كـان الجـواب الوحيـد ان استنهاض « الخصوصية اللبنانية والاستثنا ءاللبناني » قادر على ذلك ، فهـذا